

الدور والفتنة في الكسوع

قصة المخطوطات العربية :

كثر الحديث في هذه الأيام عن المخطوطات العربية ، ووجوب العناية بها ، وجمع شتاتها الفرق في خزائن الشرق والغرب ، ويجرى الحديث في هذا فياضاً بالحفا والغيرة ، وينادي الكثيرون بأن العناية بهذا في مقدمة ما يجب على الأمة العربية ، ولا يجب ! فإن الشرق العربي اليوم في فترة يقظة يبحث فيها عن نفسه ، ويجاهد ليجمع بين بومه وأمه .

وكان قد أذيع من قبل أن اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية معنية بهذا الأمر ، وأنها قد قوت في هذا خطة ستمضي عليها في إحياء التراث العربي وجمع المخطوطات النادرة المتفرقة ، سواء ما هو منها في حياة الأفراد أو في ملك الهيئات والحكومات ، ولكننا لا ندرى ماذا بلغت من هذه الخطة وماذا أجدت في هذا السبيل .

وللتراث العربي من قديم الزمن قصة ، بل مأساة اليمية مثلت فصولها ومشاهدها على مسرح الأحداث القائمة والأيام المظلمة ، فقد انتهت هذا التراث أيام غارات التار ، وفي الحروب الصليبية بالشرق ، والحروب الصليبية بالأندلس ؛ ثم كان أن غزا الأتراك العثمانيون أقطار الشرق العربي وبسطوا نفوذهم فكانت أول ما قصدوا إليه أن نقلوا كثيراً من المخطوطات العربية إلى مكاتب الآستانة ، ثم كان أخيراً أن تسلط الغرب على الشرق فتسلطت أيدي الأوروبيين على المخطوطات العربية بالسلب والسرقة والاحتيايل حتى اكتظت بها مكاتب لندن وباريس وبرلين على حين أفقرت منها مكاتب العرب أنفسهم .

ولما اتجهت رغبة المغفور له أحمد حشمت باشا في مطلع هذا القرن إلى النهوض بمشروع « إحياء الآداب العربية » ، ونشر المخطوطات المنظمة النادرة ، كان أول ما فكر فيه هو الاعتماد على مكاتب الآستانة ، فسافر فعلاً إلى هناك المخور له

ردع الظالم ، فإذا أشكل الأمر على القاضي ولم يعرف أيهما الظالم وجب عليه أن ييمت بالحكمين على نحو ما عند الشافعية « وجعل الخفية ذلك حقاً من حقوق الحاكم يعمل به إذا امتد النزاع بين الزوجين ووقع إليه الأمر . والأصل في ذلك قوله تعالى في سورة النساء « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما » فالذي يظهر من لفظ الآية إيجاب التحكيم على أولى الأمر إذا رفع إليهم نزاع بين زوجين أو هو إيجاب للتحكيم على من بلغه الأمر من الحاكم أو جماعة المسلمين ، فإن الخطاب في قوله « وإن خفتم » للمسلمين سواء كانوا أولى أمر أو غيرهم وذلك لأن الزوجين قد ارتبطا برباط عقد الزواج ووجد بينهما من الصلة ما يهتم بالحرص عليه ووجد بين أهلها من وشائج القرابة بالمصاهرة ما لا يمح التساهل في توهينه وتقطع ما اتصل به ، ولهذا أمر الله تعالى عباده متى أحسوا بشقاق بين الزوجين وهو النزاع الشديد أن يختاروا من أهل الزوجين حكيم حكماً من أهل الزوج رضاه وحكماً من أهل الزوجة رضاه ليجت كل مع صاحبه ويقف على أسباب النزاع وما عساه يكون من أسرار لا يقف عليها القاضي ولا أعوانه ، وعلى الحكيم أن يبذل ما في وسعهما للتوفيق بين الزوجين المتنازعين وإلزام كل منهما بما يراه لازماً في صلاح العشرة بينهما وحاسماً للنزاع فيما يستقبل من أمرها فإذا لم يجدا سبيلاً إلى الوفاق بمد بذل ما في طاقتهم فلهما أن يقضيا بالطلاق في بعض المذاهب على طريقة معينة إذا رآيا المصلحة فيه ، وبعض المذاهب لا يعظيها الحق بل ينتهي عملهما بالمعجز عن التوفيق بين الزوجين . وعلى كل حال فإن إيجاب التحكيم في أمر الزوجين معقول فإن ما يقع بينهما لو لم يصلح بنحو هذه الطريقة أفضى إلى فساد في البيوت بين الأولاد والأقارب ، ومثل هذا الفساد مما يسرى وينتشر حتى يؤدي الأمة يتأمرها في صلاتها بعضها مع بعض كما شوهد ذلك عند إهمال هذا الحكم الجليل من زمن طويل حتى كأنه لم يرد في التنزيل . فإذا كان ذلك الكاتب الفرنسي يدعي هذا الأصل ويشير إليه ويريد أن يقتبس به ما يقع بين العملة فذلك رأيه وحده والسلام .

محمد عبده
مفتي الديار المصرية

١٤ رجب سنة ١٣٢٣

الرجل العظيم سمادة محمد على علوية باشا ، لأنه هو الذي نهض بأداء هذا الواجب عن مصر ، وجاهد لإقامة هذا الحفل برأ بذكري رجل وهب حياته للنضال عن الشرق والإسلام .

وتعاقب الخطباء والشعراء في تأبين الفقيد . فألقى سمادة علوية باشا رئيس هيئة الاحتفال كلمة ضافية أشاد فيها بمواقف الفقيد في الجهاد للحق ، والكفاح في سبيل المروية ، والنضال عن حقوق العرب في الحرية والاستقلال والكرامة .

وخطب معالي ابراهيم دسوق أبظة باشا فقال : « لقد كان الأمير شكيب أرسلان اللبديان والحارس على الأقطار العربية ، فكان المراكشي إذا هدت مراكش ، والتونسي إذا نزل الضيم بتونس ، والمصري إذا روعت مصر بحادث ، والعراقي ، والسوري ، واللبناني ، واليميني إذا اعتدى على بلد من هذه البلاد أو نشبت فيها أظافر الاستعمار وبرائن الاستبداد . ولقد خلا المرين من هذا الأسد المصور ، ولكنه خلا بمد أن نشر تمالجه السامية في كل مكان ، ومد أن أعطى من نفه القدوة الحسنة في الوطنية والتضحية والإقدام ... »

وخطب الشيخ سامي الخوري وزير لبنان الفوض في مصر خطبة استهلها بقول الفقيد:

فما العيش إلا أن نموت أعزة وما الموت إلا أن نميش ونسلما ثم قال : لقد كانت حياة الفقيد جهاداً مستمراً في سبيل بلاده وهو عنها بعيد ، ولقد بقى على رغم البعد هدى للأوطان العربية جميعها ؛ تستنير بشعلة ذكائه الوقاد ، وتمتدى بنور حكته الرصينة ، ثم دمه الموت بمد أن عاد إلى بلده خافق القلب ، إذ لقيه حراً طليقاً من كل قيد ...

وألقيت في الحفلة كذلك عدة كلمات لمثل الحكومات والهيئات العربية ، وكلها تتوارد على الإشادة بمواقف الفقيد ، وتصور مدى الفجعة الشاملة بموته ، والنسارة الكبيرة بفقده . على أنها مما يجري عادة في مثل هذه المناسبة ، وليست مما يؤثر للتسجيل الأدبي .

وجاء دور الشعر ؛ فألقيت قصيدة لشاعر القطرين خليل بك مطران ، وقد كنت أنتظر من مطران في هذا الموقف شيئاً كبيراً كثيراً ، فاني أقدر وفاءه لإخوانه ، وأعرف صلته بالفقيد ، ولكن مطران اعتذر بمن اعتذاراً موجعاً إليما إذ قال :

أحمد ذكي باشا ، وقام بتصوير ونقل كثير من المصادر العربية النافعة التي نشرتها ولا تزال تتولى نشرها دار الكتب إلى اليوم . وفي هذا المقام نرى من الوفاء للحق ، أن يذكر عالين جليلين بالخير والثناء هما المغفور لهما أحمد تيمور باشا وأحمد ذكي باشا ، فقد بذل هذان الرجلان كثيراً من الجهود الصادقة والأموال الطائلة في العناية بالحصول على المخطوطات العربية ، ولكننا من الأسف لم نجد من يخلفهما في هذا السبيل ، لأن علماءنا — أعزهم الله — على اختلاف ألوانهم ودرجاتهم يؤثرون الوصول والمثالة من أقرب طريق .

وعجيب أي عجيب أننا لا تزال فيها تحقق من تاريخنا وآدابنا عالة على المستشرقين فيما ينقلون من آثارنا ومخطوطاتنا التي هي في خزائهم ، وعجيب أي عجيب أن تكون عندنا الجامعة الأزهرية المتيقة ، وجامعة فؤاد الأول ، وجامعة فاروق الأول ، ودارالكتب المصرية والمجمع اللغوي ، ثم ما شئت من هيئات ثقافية كثيرة ، حكومية وغير حكومية ، ولم تستطع هذه كلها مجتمعة أو متفرقة أن نهض بعمل جدي في هذه الناحية ، ولم تفكر كلها أو واحدة منها في إرسال بعثة بشأن هذا التراث النهوب .

إنني على يقين من أن بعث تلك المخطوطات النادرة سيصح كثيراً من مسائلنا التاريخية والأدبية ، وإنني على يقين من أن إحياء هذا التراث الخالد سينصفنا أمام أنفسنا وأمام الأمم الأخرى ، فلعل الجامعة العربية تسدى في ذلك ما فات غيرها ، وتهض بما هو واجب عليها ومنوط بها ، ولعلنا نلس لها قريباً في هذا العمل الجهد المشكور .

تأبين الأمير شكيب :

بعد ظهر يوم الجمعة الثامن من هذا الشهر أقيمت حفلة تأبين كبرى بدار الأوبرا الملكية لفقيد المروية المغفور له الأمير شكيب أرسلان اشترك فيها لفيق من الرجال البارزين في الأقطار العربية وأعلام الأدب والصحافة ، وحضرها كثيرون من الوزراء والكبراء وأهل العنبل ، ولقد جاءت هذه الحفلة عنواناً للأسى الذي تحمل جميع أبناء المروية على فقد ذلك المجاهد العظيم ، كما جاءت مظهراً من مظاهر الوفاء والتقدير للرجال العاملين ، وإننا — من الوفاء للحق — لنشيد في ذلك بصنيع

قد اتفقت أخيراً على إعداد العالم لتقبل ما تهدف إليه من المبادئ والأفكار. فرأت أن خير سبيل لهذا هو إعداد مجموعة كبيرة من الأفلام الثقافية التي تصور تلك المبادئ. وتنطق بتلك الأفكار وتوزعها للعرض في كافة أنحاء العالم على الشباب في المدارس والأندية وبنائز المنظمات .

وقلت هذا لنفسى أيضاً إذ قرأت أن هناك مفاوضات تجري بين بعض المشتغلين بالسينما من المصريين والشرقيين ، وبين فريق آخر من الإنجليز لتكوين شركة إنجليزية شرقية تقوم بعمل أفلام ناطقة باللغة العربية وتكون موضوعاتها ذات صبغة عالمية ، وستقوم هذه الشركة الضخمة بتوزيع أفلامها في شتى أنحاء الشرق العربي فأنت ترى أنها حرب دعاية ، وأن السينما قد أصبحت أقوى أداة للتبشير بالمبادئ والأفكار ، وإذا كان الحلفاء قد استغلوا هذه الأداة لبث دعاباتهم على أوسع ما يكون في الحرب فإنهم الآن كذلك يريدون أن يعتمدوا عليها وأن يستغلوها لنشر مبادئهم في السلم . ونحن في مصر ، حكومة وشعباً ، نرى هذا كله ، وكأنه لا يعنيننا في شيء ، وكأننا لا نرجو من دنيا المبادئ إلا أن تربط بالذليل .

عندنا سينما ، وعندنا شركات ، وعندنا أفلام . ولكننا نغلوها بأفذر ما في المجتمع من انحطاط الميول وضراوة الغرائز وكل ما يضمن الزواج والإقبال من العامة وأشياء العامة ، ثم نوزع هذه الأفلام في الشرق العربي على أنها مظهر فننا وعنوان ثقافتنا وبإله من فن نأفه وثقافة رخيصة .

فيا قوم حسبكم ، لقد آن لكم أن تفهموا أن العالم يجد ، وأنتا لا تستطيع أن نحتس في ذلك الموكب العالى إلا جادين ، أليس من الهوان والبخس والتفاهة أن لا تقدم شركة من تلك الشركات السينمائية في مصر على إخراج فلم قومي يصور ناحية مجيدة من تاريخنا ، ويحمل مظهراً صحيحاً من ثقافتنا ؟ بل أليس من التفريط والتقصير أن لا تعتمد حكومتنا على السينما - وقد أصبح لها الآن كل هذا النفوذ - في بث ما ترجو من التثقيف والتهذيب. وما تنشده من الأسلاخ والهوض ، وأن لا تجعلها أداة دعاية في الشرق العربي ؟

ولكننا أمة مغلوبة على أمرها ، فنحن ننتظر دائماً حتى يصل الغرب إلى آخر الشوط ، ثم نبتدىء فنكر ماذا نعمل ؟

أبنى الرثاء له فيبرق خاطرى حزننا، ولكن ابن صوب غمام ؟ لم يبق لي شمر ولا نثر وقد أخنى على تقادم الأعوام ... فكان اعتذاره هذا أبلغ وأوجع من أى إضافة في الرثاء . ثم أتى الأستاذ الشاعر على محمود طه قصيدة قوية الأسر، ابتدأها بتصوير الفجيمة بموت الأمير فقال :

رزء المروية فيك والإسلام رزه النهى ورفيعة الأفلام
هو ماتم الأحرار في متوتب بصفوفهم مستبسل مقدم
ثم أخذ في تصوير حياة الفقيد فقال :
أبأ المثاليين صوتك لم يزل في الشرق وحى براعة وحسام
لخلاص دار ، أوفككك عشيرة خضت الحياة كثيرة الآلام
واجترت جسر المرين عواصف

هوج ، وموج مزيد متراى
وشهرتها حرباً على مستعمر متجبر ، أر غاصب ظلام
إرث الجدود الصيدأت وهيته قلسا يصول دونه ويحامى
وشباب مهدور الدماء مجاهد في الله عن عرب وعن إسلام
وهكذا مضى الشاعر إلى آخر قصيدته يصور حياة الفقيد في شتى نواحيها بهذا الأسلوب الجزل ، وقد كان من الموافقة المتواردة أن اتفق الشعراء في الروى والثقافية ، وفي كثير من الممانى والتماير التي قوامها حياة الفقيد .

وإني بعد هذا لأسأل : أيكفى هذا الحفل في الوفاء بدين الفقيد العظيم ؟ كلا ! فقد كان الأمير شكيب في حياته وفي جهاده وفي مواهبه أضخم من هذا وأكبر ، فمن الواجب على أبناء المروية جميعاً أن ينهضوا بعمل يخلد ذكره ، وصنيع يحفظ آثاره ، وينشر تعاليمه ، وإني لأعجب أن تهتم الجامعة العربية فتخطب حكومة العراق لصيانة تراث الكرملى ، ولا تؤدى هذا الصنيع لصيانة تراث الأمير شكيب ! !

وأبى نعمس ؟

يظهر أن الأمة المغلوبة على أمرها لا تدين بالحقيقة حتى تصدم رأسها ، ولا تصيخ للنصيحة حتى تحرق أذنها ، ولا تقتنع بأمر من تطورات الزمن والحياة إلا بعد قوات الأوان ، وبعد أن يكون الشوط قد بلغ نهايته .

قلت هذا لنفسى إذ قرأت أن اللول التي تحالفت على إدراك النصر

الفلسفة الهندية القديمة :

يزور لندن الآن الأستاذ وديع البستاني للبحث عن أصول الفلسفة الهندية القديمة ، ويقولون إنه عثر على ستة مخطوطات نادرة ولا يزال يوالى البحث والراجعة لإعداد دراسة مستوعبة عن الفلسفة الهندية القديمة .

والأستاذ وديع البستاني هو أحد فروع تلك الدوحة البستانية المربقة التي أسدت إلى الثقافة العربية خدمات جليلة في شتى نواحي اللغة والأدب والفلسفة ، وقد قام الأستاذ وديع منذ ربع قرن بنقل عدة كتب فلسفية طريفة إلى اللغة العربية ، وكانت لديه نزعة إلى الموضوعات الطبيعية التي يتجلى فيها صفاء الروح وجمال الكائنات ، ويظهر أن الفلسفة الهندية العياضة بالترغات الروحية قد استهوت فكف على دراستها منذ سنوات ، وهو لا يزال يجد في هذه الدراسة لإخراج سفر شامل في هذه الناحية التي لا تزال معاة على أبناء العربية .

والمعروف أن الفلسفة الهندية القديمة كانت عنصراً من العناصر التي استمدت منها الثقافة العربية بالترجمة والنقل أيام المباسين ، ففي البلاغة وفي الفلسفة وفي علوم الفلك والجبر والحساب نجد نصوصاً منقولة عن أصول هندية ، ونحن نقرأ هذه النصوص قراءة عابرة لأننا نجهل مصادرها ومرامها ، ولا يزال إلى اليوم في كل ما نعرف من معارف الهند القديمة عالة على المستشرقين ، وإنها في الواقع لإحدى العجائب ، إذ يتيسر لأجدادنا العرب بدافع فهمهم إلى المعرفة نقل المعارف الهندية والانتفاع بها والوقوف عليها ، ونحن لا يزال نجهل تلك المعارف جهلاً مطبقاً مع أن صلتنا بالهند قد توثقت ، ومعارفنا قد اتسعت وسبل الانتقال والبحث قد تيسرت .

إن الأستاذ وديع البستاني بعمله هذا يؤدي خدمة جليلة للعربية ، وإنها لفاحة خير بدأها الأستاذ عبده حسن الزيات بكتابه الذي أخرجه حديثاً وموضوعه « حكايات من الهند » ، وإننا نرجو أن يرود أبناء العروبة هذه الناحية على أوسع ما يكون ، فإن الثقافة الشرقية قوامها روح واحدة ، ووجهتها غاية واحدة ، وقد أصبح من الخطأ استقلال أمة بمعارفها ، فكيف والهند ليست هندية عنا ..

كتاب من غير أفلام :

تناوات عدداً حله البريد أخيراً من مجلة سورية خصصت صفحاتها للأدب والمباحث الثقافية ، وفي عنوانها أنها « سورة الفكر المعاصر » ، فوقمت في صفحاته الأولى على مقال بعنوان « الأدب من أين يبدأ » ، فتعاضت عما في العنوان من خطأ شائع درج عليه كثير من الأدباء المعاصرين ، إذ يؤخرون اسم الاستفهام وإن كانت اللغة تقضى له بالصدارة ، وأخذت أقرا ما تحت العنوان فقرأت في السطر الأول « إنى بالأدب شغوف » وفي السطر الثاني « وكيف عرفت أن ميولك منصرفة إلى هذه المنصرف » وهكذا أخذت أنتقل من سطر إلى سطر ، وأنا أنتقل من خطأ إلى خطأ حتى ضاقت نفسي وأقيت بالجملة من يدى ولم أستطع أن أستوعب من المقال أكثر من خمسة أسطر !!

إن الفكرة السليمة قوامها الأسلوب السليم ، وإن الكاتب الذي لا يستطيع أن يصحح ما يكتب لا يستطيع كذلك أن يصحح ما يقرأ ، ومعنى ذلك أنه يقرأ على غير فهم ووعي .

ولكنني أعرف كثيراً من ناشئة هذا العصر ، وكتاب هذه الأيام قاصرين عن تصحيح لغتهم وتقوم أسلوبهم ، وإنى لأعرف كتاباً يبنوا على مؤثرون الدنيا بأسمائهم ويتصدون للنقد والمناقشة وهم حين يجلسون لإراءة الداد على الورق لا يعرفون مصادر الكلام من موارده ، فيتركون هذا لأناس يستخدمون أشخاصاً على أجر معلوم لهذا الغرض ، وعندما أن هذا ليس باب ، بل إنهم ليحسبون التمسك باللغة عنجهية وتقرأ لا يلبق بمفكرى هذه الأيام وأنا والله لست أدري ما ذا يكون ذلك الكاتب إذا فقد أول شرط للكتابة ، وأى شيء يبلغ من الأدب إذا لم تكن لديه أداة الأدب ، وهل يجدى هؤلاء شيئاً ما يشبهون به من أنهم يمدقون لغة أو لغتين أجنبيتين على حين يجهلون اللغة التي يكتبون بها ويتسبون إليها !!

ولكنها بدعة أعجمية ، خلقها المعجز وبررها القصور عند هؤلاء ، وإنهم لكتاب من غير أفلام ، وإن حسبوا أنفسهم من الأعلام .